فكاهات

الضريح (١)

حدثني صديق قال

ما انتهى موسم سنة ١٩٠٢ وانقضى شتآؤها حتى دخلت القاهرة كعادتها في طورها الصيفي فوقفت حركة العمل وهبت الخماسين وزادت حرارة الشمس فعلها في الاجسام وكنت قد رصّدت حساباتي السنوية فوجدت ان ارباحي في ذلك العام فاقت العام السابق فحدثتني نفسي ان اروّح النفس من عنآء الاشغال وانجو من حرارة الصيف ولم يكن لي عيال يمسكونني فجهزت لوازم السفر وغادرت القطر منطلقاً في ارض الله حرًّا كالهوآء وسعيدًا كطير السمآء . وما زلت اتنقل من بلدةٍ الى اخرى حتى ألقاني الترحال الى ايطاليا فكنت اتنقل في مدنها الى ان بلغت فلورنسا فأعجبتني جدًّا واقمت بها اياماً زرت فيها جميع انحآء البلدة بصحبة صديقٍ عرفتهُ هناك شخصيًّا وكنت اعرفهُ قبلاً بالاسم لما بين محلي ومحلهِ من المعاملات . وبينما كنا يوماً نسرّح الطرف في شوارع تلك المدينة ونتفرج على بناياتها الفخيمة نظرنا قصرًا قديم البنآء عظيم الابهـة في وسط حديقة متسعة غنآء جمعت من كافة اصناف الاشجار المثمرة والازهار البديعة . وكان باب الحديقة مفتوحاً واخبرني صديقي ان الدخول مباح للجمهور فدخلنـا نتخطر بين الورود والرياحين وصديقي يتلو عليَّ تاريخ ذلك القصر وسكانهِ فعلمت منهُ انهُ لأُسرةٍ من اقدم أسر الطليان واعرقهم نسباً حافظ بنوها على هذا البنآء ويقيم فيهِ الآن الباقي من نسلهم واسمهُ المركيز بيرنزا . وبلغنـا في منتصف الحديقة بناية صغيرة من حجر المرمر تحيط بهـا اعمدة من الرخام البديع

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

النقش وعليها قبةٌ من صنف البنآء وفي اعلاها تمثال لم تصنع يد نقاش ابدع منهُ . وكان على مسافة قريبة من هذه البناية وعلى محيطها اشجار من الصفصاف الباكي قد تدلت غصونها فوق البنآء فزادت في حسن منظرهِ اكثر من الرياحين والورود التي كانت تكسو الارض كأنها بساط فرشتهُ يد الطبيعة اجلالاً لذلك المقام . وسألت صديقي عن المراد بهذه البناية فقال لي انها ضريح . فقلت قد اريتني في المقبرة بناية تثمن بالالوف واخبرتني انها مقبرة اسرة بيرنزا فلماذا لم يدفن فيهـا هذا الميت ولمَ شذّ هذا عن قاعدة الاسرة وكيف وُجد الضريح بجانب قصر السكنى وفي وسط هذه الحديقة . فتنهد صديقي وقال ان لذلك تاريخاً محزناً وان شئت اطلعتك عليهِ . فقلت نعم احب ان اسمع ذلك فقادني الى ناحية خيمت فيها الاشجار واجلسني على دكةٍ طبيعية في جذع شجرةٍ قديمة وبعد ان صمت هنيهةً جمع فيهـا افكارهُ قصَّ عليَّ ما يأتي فقال

اعلمتك شيئاً من تاريخ اسرة بيرنزا وانهُ لم يبقَ منها سوى ساكن هذا القصر واسمهُ المركيز روبرتو بيرنزا . فلما كان في الخامسة والعشرين من عمرهِ اقترن بفتاة من اسرةٍ لا تنحطّ عن اسرتهِ مقاماً فكانت لا تهتم الاّ براحة زوجها ولا يهمهُ سوى رضاها . وفي نهاية السنة رزقهما الله ولداً ذكراً سمياهُ لودوفيك وكان سرورهما بهذا المولود لا يعادلهُ سرور في العالم وجعلا شغلهما الشاغل الجلوس بجانب سريرهِ يتأملان جمالهُ الملوكي ويعدان تنفساتهِ وطرفات جفنيهِ . وكان الغلام ينمو تحت رعايتهما فيزيد وجههُ اشراقاً ويمتلئ جسمهُ وتتقد في عينيهِ نار العظمة والذكآء

وفي ذات يوم كان المركيز في مكتبتهِ يطالع اوراقاً تختص بأشغالهِ فخرجت المركيزة الى الحديقة وبصحبتها الخادمة تحمل الطفل وقد بلغ الثالثة من عمرهِ فكانا ينزهانهِ في ارجآء هذه الحديقة . وبلغا جانباً منها كان يحفظ المركيز فيهِ اصناف الطيور والحيوانات الداجنة لانهُ كان مولعاً بتربيتهـا وكان بينها ثورٌ شرس جداً ابتاعهُ المركيز حديثاً بثمن باهظ رغبةً منهُ في الحصول على نتاجهِ . وحدث انهُ عند اقتراب المركيزة وولدها والخادمة ان الثور كان في ساعة هياج شديد وزادهُ منظر

هؤلآء شراسةً وجنوناً فكان يثبُ في بيتهِ الخشبي فيزعزعهُ وخشيت المركيزة سوء العاقبة فأشارت الى خادمتها بالابتعاد عن ذلك المحل وما سارا قليلاً حتى رأى الثور ابتعادهم فزاد غيظهُ وهجم الى باب زريبتهِ ودفعهُ بقوةٍ شديدة فتحطم وخرج منهُ يعدو تابعاً اياهم . فصاحت المركيزة صياح الرعب وانطلقت تجري بمنتهى قوتها ورآء الخادمة وكانت قدضمت الغلام الى صدرها واطلقت ساقيها للريح . وما زالتا في ركض شديد حتى عثرت الخادمة بطرف ثوبها فسقطت والغلام الى الارض ورأت المركيزة ذلك والثور جادٌّ في اثرهما فرأت ان لا بد من استيقافهِ قليلاً ريثما تتمكن الخادمة من النهوض أو يجيء احد لاغاثتهما . ولما لم يكن لها من الوقت الاّ ثوانٍ قليلة لان الثور أوشك ان يدركهما وقد نظرت الى ولدها في ذلك الخطر وكأن تلك النظرة قد اكملت فيها القوة التي كانت تتوقعها فارتدّت على اعقابها لتقابل الثور الهائج بقلبٍ اشد من الحديد كلبوءةٍ تودّ ان تلتقي بصدرها رصاصة الصياد الموجهة الى قلب شبلها . وكأن ما برق في عينيها من نار القوة والاقدام وما ظهر من جرأتها في ذلك الاقدام قد اثّرا في الحيوان فتوقف هنيهةً ولكنهُ ما عتم ان عاد الى عدوهِ هازئاً بذلك العدوّ اللطيف واستقبل المركيزة وقد نكس رأسهُ وضربها بقرنيهِ فبقر بطنها ثم رفعها عن الارض . وفي نفس الدقيقة دوى في الفضآء طلقٌ ناريٌّ ارتفع على اثرهِ جؤار الثور ثم سقط الى الارض يتدفق الدم من صدرهِ . وكان المركيز قد سمع صراخ زوجتهِ والخادمة فأطلّ من نافذة غرفتهِ مذعورًا ورأى المنظر الذي ذكرناهُ فأسرع كوميض البرق الى غرفة السلاح وأخذ بندقية ثم عاد الى النافذة واطلق تلك الرصاصة القاتلة في نفس الدقيقة التي كان فيها قد قضي على المركيزة

واسرع المركيز وخدم القصر الى محل الحادثة واهتم بعضهم بالطفل والخادمة وكانت قد اغمي عليها لشدة الرعب على اثر وقوعها واسرع المركيز الى زوجتهِ فرفعها عن قرني الثور ونقلوها الى القصر واستدعى المركيز اشهر الاطبآء للنظر في امرها فوجدوا ان لا امل في نجاتها . وبقيت تلك المسكينة ليلتها في عذابٍ شديد ولم تنطق بكلمةٍ واحدة الى انبثاق الفجر فاشارت انها تود مشاهدة ولدها فأتوها بهِ فجاهدت

شديدًا حتى تمكنت من مد يدها فوضعتها على رأسهِ وقالت سامحني ايها الصغير فقد جئت بك الى هذا العالم ولم اتمكن من مساعدتك للسير فيهِ ثم ضمتهُ الى جانبها فقبلتهُ ونظرت الى زوجها كانها تريد ان توصيهُ بهِ ولكنها لم تستطع النطق فاقترب المركيز منها والزفرات المتصاعدة تمزق صدرهُ وقال قد فهمت مرادكِ ايتها الحبيبة فتبسمت وشخصت ببصرها الى العلاَّء واسلمت الروح

وكان حزن المركيز في غاية المرارة فدفن زوجتهُ بمنتهى الاجلال والاكرام وانقطع عن جميع الملذات والمسرات فلم يعد يخرج من قصرهِ وانقطع الى السهر على ولدهِ ولم يسمح لاحد بمقابلتهِ سوى خادم امين يدعى لورنسو كانت اجدادهُ في خدمة اجداد اسرة بيرنزا فكان المركيز يأنس بهِ ويرى بهذا الرفيق عزآءً وسلوانًا

وشب لودوڤيك فكان مثال والدتهِ في الجمال ورقة الطبع وطيبة القلب ومثال والدهِ في قوة الجسم والادراك والاقدام وتلقن علومهُ الاولية على ايدي اساتذة استحضرهم لهُ المركيز. ولما بلغ الحادية والعشرين من عمرهِ طلب من والدهِ ان يرسلهُ الى باريز ليدرس فيها الحقوق . فكان لهذا الطلب عند المركيز في اول الامر وقعٌ محزنٌ جدًّا لانهُ كان يود ان لا يفارق ابنهُ طرفة عين ولكنهُ عاد فتذكر مجد اسلافهِ واقدامهم ورأى من الصواب ان يكون ابنهُ كاجدادهِ رجل فخار وشهرة واسعة لا تتأتى لهُ اذا اقام العمر في قصرهِ فاذعن اخيرًا لطلب لودوڤيك وهو يود ان تفارقهُ حياتهُ ولا يفارقهُ ابنهُ . ثم جهز لهُ لوازمهُ واعطاهُ مبلغًا كافيًا من المال وزودهُ ببعض الوصايا الابوية وسافر لودوڤيك الى باريس مترضيًا والدهُ معتمدًا على تسهيل الله . ودخل المركيز الى قصرهِ فارتمى على سريرهِ واستخرط في البكآء

وبلغ لودوڤيك باريس فتوجه الى مدرسة الحقوق وانتظم في سلك الطلبة ثم اكترى لهُ غرفةً في بعض احيآء المدينة التي تقرب من المدرسة وكانت غرفتهُ في بيتٍ كبير بناهُ اصحابهُ لتأجيرهِ غرفًا غرفًا . فأثّث لودوڤيك غرفتهُ بسلامة ذوقهِ فكان رياشها بسيطًا وفاخرًا وكان يقضي معظم نهارهِ في المدرسة ومتى انتهى منها يعود الى غرفتهِ حيث يطالع دروسهُ او يؤلف الحانًا موسيقية على البيانو وكان شديد

الولع بالنقر عليهِ . و بقي على هذه الحالة السنة الاولى والثانية وكان يرجع الى ابيهِ في فلورنسا و يقضي بجانبهِ اياماً من كل سنة مدة عطلة الدرس

وفي اثنآء السنة الثانية صاحب لودوفيك رصيفاً لهُ في المدرسة يدعى اوغست وكان هذا من اسرة غنية جدًّا ولكنهُ ضعيف البنية . وكان التلامذة يكرهونهُ فتعصبوا عليهِ اما لودوفيك فمال اليهِ ولزم صحبتهُ ولما لم يرَ اوغست لهُ معيناً سوى لودوفيك الفهُ واصبح كاخيهِ فكان يأتي في اكثر الاحيان و يقضي اوقات فراغهِ معهُ في غرفتهِ . وحدث يوماً ان كان لودوفيك يطالع في كتبهِ فسمع صراخاً فاجفل ووثب الى باب غرفتهِ فرأى في غرفةٍ مقابلة فتاة تستغيث فاسرع اليها فعلم انها تقيم هنالك مع والدتها منذ مدة وان والدتها قد مرضت من عهد قريب وقد اشتد بها المرض واصابتها في تلك الدقيقة نوبة شديدة فخافت الفتاة وصرخت مستغيثةً وهي لا تدري ماذا تفعل . فتقدم لودوفيك الى داخل ورأى الام على سريرها وقد شخصت عيناها واصفر وجهها ووقفت قطرات العرق البارد على جبينها فتقدم بكل هدوءٍ وجسّ يدها فوجد ان سخونة الحياة قد فارقتها وتسلطت عليها برودة الموت ثم أدنى رأسهُ من صدرها فوجد ان ضربات قلبها قد وقفت . ورأى بعد هذا الفحص ان الفتاة تنتظر منهُ كلاماً فترك الميتة واخذ في تعزية هذه بكلمات رقيقة واعلها بمنتهى الرقة والحنوّ أن والدتها قد قضت نحبها . فجعلت الفتاة تلطم وتنتحب وتقول اواه يا أماه والى من تركتِ ابنتكِ وحيدةً في العالم . وكان لودوفيك قد نادى صاحبة البيت ووكل اليها الاعتنآء بتجهيز الفقيدة واجرآء اللازم لدفنها واهتم هو بتسلية الفتاة وقد رأى فيها جمالاً ملائكيًّا وأدباً و بساطةً اخذا بكامل عقلهِ . ولما حُملت الجنازة الى المدفن وواروا الجثة في التراب اخذ لودوفيك بذراع الفتاة وارجعها الى البيت وهو لا ينفك عن تسليتها وتسكين عواطفها بارق الكلام واعذب عبارات التعزية . ورأت الفتاة من نفسها ثقةً بلودوفيك فكانت تعاملهُ معاملة اخٍ حبيب وتنتظر رجوعهُ من المدرسة بكل اشتياق فلا تقع عينها عليهِ حتى يسري عن وجهها ما تراكم عليهِ من الحزن والهم . وشعر لودوفيك ان من واجباتهِ تسلية الفتاة في زمن حزنها فكان

اذا انتهى من درسهِ يعود مسرعاً الى البيت ليقابلها ويجتمع بهـا . وعرف منها انها تدعى مرغريت وانها جاءت ووالدتها من جنوبي فرنسا بعد موت ابيها وسكنتاذلك المحل فكانت الام تعمل في الخياطة وصناعة القبعات فتكسب ما يكفي لقوتهما وتربية ابنتها . فقال لها لودوڤيك وماذا ترومين ان تفعلي الآن . قالت سأبقى في هذا المحل لاني غريبة عن العالم ولا استعطي لاني فتاة في نضارة شبيبتي وابان قوتي فسأسعى في تعاطي عملٍ كما كانت تفعل والدتي . فصوّب لودوڤيك رأيهـا وتبتها على عزمها ووعدها انهُ يبذل جهدهُ في تدبير اشغال يحضرها لها لتعملها . وكان حقيقةً كالاخ يساعد مرغريت ويحرسها ولا يفارقها كلما تمكن من ذلك . وكان يعجب بآدابها وذكائها الغريب فكان موضوع حديثهما ادبيًّا اجتهد فيـهِ لودوڤيك ان يبثّ في صدرها زيادة العلم والاطلاع فاذا سارا في الحديقة وصف لها الازهار وعلمها في عرض الحديث شيئاً من علم النبات او اذا سهرا كلمهـا عن النجوم والافلاك وكانت تجد في حديثهِ لذةً وتشعر بارتفاع ضبابة الجهل عن عينيها وتوسعها في المعرفة فصارت لا تجد لذةً الا بوجود لودوڤيك فتدأب في العمل مدة غيابهِ وتتفرغ لمجالستهِ حين وجودهِ . وكان العمل الذي يحضرهُ لها مع مساعدةٍ مالية يضيفها الى اجرة عملها بدون علمها كافية لمعيشتها . وسمعها يوماً تنشد فاعجبهُ صوتها الرخيم وكانت قد انقضت مدة الحداد على والدتها فطلب اليها ان تجيء الى غرفتهِ وكان يعلمها ضرب البيانو والغناء . و بالاجمال فانهُ كان كالصائغ ومرغريت في يدهِ كسبيكة من الذهب الثمين يصوغها كيف شاء ويُفرغها في القالب الذي يراهُ اتم صنعاً وابدع جمالاً

وفي ذات يوم كانت مرغريت في غرفة لودوڤيك تراجع اغنيةً علمها اياها فدخل صديقهُ اوغست وما وقعت عينهُ على طلعة مرغريت حتى شعر بتغيير حالهِ فوقف هنيهةً يتأمل في جمالها الرائع وصوتها الرخيم وحسن تنقل اصابعها على الآلة الموسيقية ولما انتهت مرغريت من اغنيتها قدمها لودوڤيك الى صديقهِ وعرّف بعضهما ببعض وجلس الثلاثة معاً فغاصوا في بحار الحديث

وسقط اوغست في وهدة الهيام وادرك ان صديقهُ لودوڤيك يهواها ايضاً

ولكنهُ تجاهل الامر وسعى في استمالة قلب الفتاة فجعل يزور صديقهُ يوميًّا وفي كل يوم يستصحب معهُ هدايا نفيسة فيقدمها الى مرغريت وتقبلها منهُ بمنتهى البساطة والشكر . اما لودوفيك فكان قد وطن عزمهُ على الاقتران بمرغريت متى بلغت سن الرشد ويكون هو حينئذٍ قد انهى دروسهُ فيصير ولي امرهِ ولذلك لم يشأ ان يفاتحها بشيء من هذا الموضوع بل اقتصر على ما ذكرنا من معاشرتها وتخليقها باخلاقهِ وتعليمها ما يود أنها تعرفهُ . فلما انتهت السنة المدرسية وجآءت ايام العطلة سافر لودوفيك كعادتهِ لقضآء تلك المدة مع والدهِ تاركاً مرغريت في حراسة صديقهِ اوغست بعد حراسة الله

ولما انقضت ايام العطلة عاد لودوفيك الى باريس فوجد ان حبيبتهُ مرغريت قد غادرت محل سكنها فتعجب عجبًا شديدًا وقلق لهذا الامر ثم سمع ايضاً من افواه رصفآئهِ ان اوغست صديقهُ لم يعد الى المدرسة فاشتغل خاطرهُ وقضى اياماً يبحث بحثًا مدققًا عن صديقهِ ومالكة فؤادهِ فلم يقف لهما على اثر . وبعد نحو خمسة عشر يوماً من عودتهِ بينما كان لودوفيك جالساً في غرفتهِ لم يشعر الا وباب غرفتهِ قد فتح ودخلت مرغريت وهآ الحياة يتدفق من وجهها . فشهق لودوفيك لرؤيتها ونهض لاستقبالها ثم جلس الحبيبان واخذ لودوفيك يقص عليها ما نالهُ من الاسف حين عاد ولم يرها . فأظهرت مرغريت شديد الاستغراب لكلامهِ وقالت كيف انتظرت ان تراني هنا وقد اوصيت صديقك اوغست ان يذهب بي الى ليون . فحملق بعينيهِ وقال الى ليون . . انا اوصيت اوغست ان يذهب بكِ فما معنى هذا الكلام . فقالت مرغريت نعم انهُ بعد سفرك بيومٍ واحد اخبرني اوغست انك تحبني محبة اختٍ وانك كنت تود ان تقترن بي لو كنت من اسرة في مقام اسرتك ولكنك لا تتمكن من ذلك لانني فقيرة الحال ومن ابوين فقيرين وانك اقنعتهُ بوجوب محبتي والاقتران بي بعد سفرك فورًا وان ينقلني الى ليون . ولا اكتمك انني لم اكن اميل الى اوغست قط وانني من اول مرةٍ رأيتك علقت جميع آمالي بك ووددت ان اكون زوجةً لك غير انني لما سمعت برغبتك هذه واعتقدت انهُ من المحال ان اكون لك انخدعت

لحكمك كرهاً وانا أود ان ابقى الى الابد في منزلة شقيقةٍ لك تثق بك وتتكل عليك فاقترنت بأوغست وسافرت معهُ لارضيك فقط . ولكنني ما بعدت عن باريس حتى شعرت ان نفسي في سجنٍ مظلمٍ وان لا شيء في العالم يعيد اليَّ سروري وارتياح ضميري سوى وجودك بالقرب مني فكنت اتوقع ايام عودتك حتى علمت ان موعد المدرسة قد عاد فطلبت الى اوغست ان نرجع الى باريس فأبى وحدثتني نفسي بعد رفضهِ باشياء فعزمت ان اقابلك واسألك ان تصرح كأخٍ بما يكنهُ فؤادك من نحوي . وكان لودوڤيك يسمع كلامها وهو يشعر بانقضاض صاعقةٍ على رأسهِ أو أفعى تنهش صدرهُ وتأكدَ للحال خيانة اوغست صديقهِ وانهُ احتال على ذلك الملك فانتشلهُ من بين يدي لودوڤيك . فصمت حيناً وهو كالمبهوت لا يحير جواباً ولكنهُ عاد فتمالك روعهُ وقال يا حبيبتي مرغريت انني لم احبكِ كأخٍ قط بل انما احببتكِ كملَك سعادتي ونجم مستقبلي وكنت احسب الايام والدقائق الى ان انتهي من المدرسة فأبوح لكِ بحبي الذي كنت اتأكد ان عندكِ نظيرهُ لي فاقترن بكِ ونرجع الى والدي ليستقبلنا ببركتهِ الابوية . فآه من الخائن الذي تجاسر ان يهدم صرح آمالي ويقطف زهرة حبكِ التي كنت اراعي نموها مذ عرفتك الى الآن . وادركت مرغريت الحالة في لحظة واحدة وكانت حقيقةً متيمة بهوى لودوڤيك ولم تتخذ اوغست زوجاً لها الاَّ رغبةً في ارضاء حبيبها فأصابتها نوبةٌ عصبية وسقطت بين يدي لودڤيك خائرة القوى تصعد الزفرات

ولما ملك الحبيبان روعهما قال لودوڤيك يا مرغريت قد قضت العناية بما حصل وحرمتني اياكِ فارجعي الى اوغست وعساهُ ان يقوم لديكِ بما كنت اود ان اقوم بهِ انا . قالت كلا لن اذهب ما لم تجئ بصحبتي فنعيش معاً لانني ان لم احقق سعادتي بان اكون زوجةً لك فلا اقل من ان تبقى اخاً لي وقريباً مني . وظهرت على وجه لودوڤيك علامات دالة على الحرب العوان الثائرة في صدرهِ فتنهد من قلب جريح وقال لا . لا . ان هذا اليوم قد قرر مستقبل حياتي يا مرغريت فانني لم أرَ الحيلةِ الا في وجهكِ ولا السعادة الا في قربكِ ولا الفوز الا بالحصول عليكِ اما

الآن وقد اصبحتِ ملك سواي فقد حرمني الدهر جميع ذلك ولست بخائنٍ صداقتي لاوغست لاسعى في استرجاع ما سلبني اياهُ . بل ان نفسي تصدني عن ارتياد مآءٍ قد ولغ فيهِ هذا الخائن فزوّديني نظرةً اخيرة من هذا الوجه اللطيف وعودي الى روجكِ واتركيني الى ما صممت عليهِ . فقالت واليأس يقطع فؤادها وعلامَ صممت ايها الحبيب . قال سيبلغكِ ذلك عن قريب

وقضى الحبيبان حصةً من الزمن يأسفان على ما جرى ويحزنان على ما ليس في الامكان ردّهُ ثم اجبر لودوفيك مرغريت على مفارقتهِ فخرجت تاركةً روحها بين يديهِ وبقي لودوفيك ينظر الى ان غابت عن بصرهِ فعمد الى مكتبهِ وكتب الى والدهِ الكتاب الآتية صورتهُ

يا ابي الحبيب

اصفح لي يا ابتِ عن المرارة التي سأذيقك اياها برضاي . انني صممت على نيةٍ لا تحولني عنها قوة بشرية ولكنني اقف عند الافتكار بها لأخط لك هذه الكلمات فيا ابتِ اصفح لي . قد وهبتني الحياة يا ابي فهذه الحياة ارفضها الآن . قد علمتني منذ صغري ان اعيش شريف النفس او اموت قبل فقد شرف نفسي ولم يمكني الامر الاول فقد اخترت الثاني ولا يبلغك تحريري هذا الا ويكون ولدك الوحيد قد مات مفضلاً ذلك على الاخلال بالمبدأ الذي تعلمهُ منك

قد خانني يا ابتِ اعز اصدقآئي وسلب مني فريدة عقدٍ لا يوازيها العالم باسرهِ فان شئت ان اعاقب ذلك الصديق واجازي شرهُ بشرٍّ اعظم فليس ذلك مما علمتنيهِ . وان عزمت على استرجاع ما سُلب مني فهيهات ان تعود تلك الجوهرة الى صفآء مآئها وقد دنستها يد الخائن الظالم . وان رضيت بالمذلة ووقفت ناظرًا بسكوتٍ الى ما حصل فان دم بيرنزا لم يسبق لهُ ان يجمد باردًا في اتون من النار . فترى اذاً يا والدي الحبيب ان حياتي التي اعطيتني اياها لم يعد لها نفع عندي ولذلك ارى نفسي مضطرًّا ان لا اقبلها بعد الآن . فاجثو تحت قدميك يا ابتِ ضارعاً اليك ان تصفح عن ولدك النكد الطالع لما يسببهُ لك الآن من الحزن وتعزَّ بما اعتقدهُ الآن

في ساعة موتي ان حياتي لو بقيت لكانت شقاءً مستمرًّا اما موتي فسعادة وهناء

ولدك الجاحد فضلك

لودوفيك

ولما انهى لودوفيك رسالتهُ هذه ختمها وعنونها باسم والدهِ ثم القاها على مكتبه وجعل يخطر في غرفتهِ ذهابًا وايابًا وهو عرضةٌ لافكارٍ هائلة وكأنهُ لم يتمكن من احتمال تلك الافكار فأسرع الى غدارةٍ كان يحفظها عندهُ فحشاها وأخذ باليد الواحدة صورة حبيبتهِ مرغريت فأدناها من فمهِ واطلق بالاخرى الغدارة على رأسهِ فخر الى الارض قتيلاً

واكتشفت جثتهُ في اليوم الثاني فنقلت مع كتابهِ الى فلورنسا الى ابيهِ فكانت حالة المركيز الشيخ تفتت القلوب واستقبل جثة ابنهِ ومن يراهُ يظنهُ انهُ هو الفقيد. وكان ان يقيم احتفالاً باهرًا فأبت الكنيسة ان تسمح لهُ بذلك لانها لا تقيم احتفالاً دينيًّا للمنتحرين ولم يؤذن لهُ ان يدفنهُ في مقبرة الاسرة لنفس السبب فضاقت الدنيا على رحبها على وجه المركيز فأخذ جثة وحيدهِ ودفنها في هذه الحديقة بمساعدة خادمهِ الشيخ وبنى فوقها هذا المزار وهو من ذلك الحين يقضي معظم وقتهِ فيهِ. ولما بلغ مرغريت ما جرى انّبها ضميرها لتصديق اوغسبت والاغترار بهِ فكانت سببًا لموت حبيبها فذهبت الى دير تقضي فيهِ بقية ايامها

. . . . . .

وما أتم صديقي تلاوة هذا التاريخ المحزن حتى حانت منا نظرةٌ فرأينا المركيز وقد حنى ظهرهُ الكبر وابيض شعرهُ الطويل المسترسل على اكتافهِ وصدرهِ قد أتى باكليل من الورد فوضعهُ على جانب من الضريح وجثا رافعًا يديهِ الى السماء مصليًا مستمطرًا على ابنهِ الرحمة والرضوان. ولا اذكر في جميع سياحتي منظرًا اثرت في رؤيتهُ كذلك المنظر المهيب فلا تبرح صورتهُ من مخيلتي